العم تاج

ريشة المحب

لا أنسى اللقاء الأول الذى جمعنى بالفنان "عبد العزيز تاج" أو "العم تاج" كما يجب أن أناديه، حينما دعوناه فى منتصف التسعينات لحضور أحد اجتماعات مجلة قطر الندي، لبى الدعوة على الفور، أتى إلينا خفيفا كالعصافير نشيطا ومتحمسا، فهو قصير القامة ممتلئ الجسم "مدكوكه"، يرتدى كساكيت منسجما دائما مع لون ملابسه، ووجه طفولى برئ يميل إلى الاستدارة أكثر، أبيض مشرئب بحمرة خفيفة، ينتهى بلحية بيضاء قصيرة أشبه بلحى كبار فنانى العالم، لا يكف عن الابتسام، وعينان ضيقتان ذكيتان تبرقان من خلف زجاج نظارته السميك، مثبتة على أنف أنيق، تتسع طاقتاه لكمية الدخان الخارج بكثافة منها، فالسيجارة لا تفارق أبدا أصابع "العم تاج" رغم تحذير الأطباء له بالكف عن التدخين الذى أحدث له قرحة كبيرة فى المعدة، ورغم الآلام التى أحيانا ما تصاحب التدخين، لكنه لم يستطع أن يمتنع عنها، وكأنها تمثل له الداء والدواء.

ولما تحدث "العم تاج" فاضت الحكايات والخبرات والرؤى، وأدركت منذ هذه اللحظة أن هذه البساطة والطيبة التى تبدو من تقاطيع وجهه، هى طيبة أهل الريف، فلم تغيره المدينة بقسوتها رغم السنين الطويلة التى قضاها بها، ولم تبدله الأيام، منذ أن أتى من مدينته الصغيرة "دسوق" بكفر الشيخ، التى عاش بها طفولته وصباه متأملا كل ما يحدث حوله بعين الفنان المرهف، متجولا فى شوارع وأزقة المدينة، وخاصة أثناء مولد سيدى إبراهيم الدسوقي، الذى يجتذب إليه الرواد والمريدين من كل صوب وحدب، فلم يكن يهمه اللعب، ولا التفرج على ألعاب السيرك القومي، والساحر والأراجوز، بل كان يشغله التفرج على البورتريهات الكبيرة الملونة التى كانت تعلق على لوحات خشبية ضخمة لوجوه لاعبى السيرك والأراجوزات، لذا تفوق فى الرسم على كل أقرانه فى المدرسة الإبتدائية، وعندما رأى لوحته معلقة على جدار حجرة الناظر أثناء مروره من أمامها فى المدرسة، وكانت دافعا قويا لاستمراره فى الرسم.

عمق "تاج" رؤيته الفنية منذ صغره بالقراءة، فكان يجمع مجلات السندباد، على بابا، وسمير يقرأها ويقلد رسوماتها، وذات يوم فوجئ بنشر إحدى لوحاته فى مجلة "سمير" وتحتها تعليق يقول: "أعجبنا رسمك، وواظب على الرسم حتى تصبح رساما كبيرا"، كان هذا التعليق نبوءة تحققت فيما بعد، وغيرت مجرى حياته، فبدأ يراسل

نـادى الرسـامين "بمجلـة صبـاح الخـير" وكان يشـرف عليـه "حسـن فـؤاد" وبعـد مـرور الزمـن شـاء القـدر أن يعمـل رسـاما بمجلـة سمـير، وكذلـك رسـاما بمجلـة صبـاح الخـير، وهـو مـازال طالبـا فـى السـنة الرابعـة بكليـة الفنـون الجميلـة، وظـل "تـاج" يرسـم ويطـور مـن أسـلوبه، وعمـل فـى مجـلات كثـيرة فـى مصـر والعـالم العربـى إلى أن أصبـح رسـاما كبـيرا لـه أسـلوبه الخـاص والمتميـز والـذى لا تخطئـه العـين.

ولا أنسـى يـوم أن أعتـزل الكاريكاتـير، نتيجـة الإحباطـات التـى أصابتـه مـن جـراء مـا يحـدث للعـرب كل يـوم، ويـراه بعينـى رأسـه علـى شاشـات الفضائيـات، مـن قتـل للأطفـال والشـيوخ والنسـاء، أدرك وقتهـا أن الكاريكاتـير عاجـز تمامـا أمـام مـا يحـدث علـى يـد الصهاينـة، وقـد أبـت يده واسـتعصت عليـه الخطـوط، وهربـت منـه الأفـكار إلى غـير رجعـة، فأعلـن الاعتـزال غـير آسـف عليـه.

فيقـول العـم تـاج عـن اعتزالـه: "أننـا نعيـش أسـوا فـترات تاريخنـا العربـى علـى الإطـلاق، بـل وعلـى جميـع المسـتويات وأنـا الآن لا أفعـل شـئ سـوى أننـى أجلـس فـترات طويلـة أمـام "الـدش" وأقلـب قنواتـه، لأرى مـا يحـدث علـى أرض فلسـطين مـن مهـازل واسـتهانة بالإنسـان وآدميتـه، ووحشـية العـدو الصهيونـي، وأرى كل يـوم بـــ "عـين رأسـي" بطـولات نـادرة مـن أطفـال وشـباب وفتيـات فـى عمـر الزهـور، يقدمـون أرواحهـم الطاهـرة فـداء لوطنهـم عـن طيـب خاطـر وراحـة بـال،

حتى تغسل دماؤهم الذكية عار العرب، أحسست بالمهانة والعجز أمام هذه البطولات، وأمام عجزنا وتخاذلنا عن اتخاذ مجرد موقف يحسب لنا، فاستعصت على الخطوط، وهربت الأفكار إلى غير رجعة، وأصابنى الاكتئاب، لدرجة أننى أصبحت غير قادر على الرسم، فقررت اعتزالى الكاريكاتير، بعد أن أحسست أن كرامة العربى تهدر، وتسحق بالنعال، فلماذا أذن أرسم؟ وكل هذا الذل والهوان يحاصرنا ليل نهار، ويتربص بنا ليلطخ ثيابنا ووجوهنا، كنا نفخر بأننا مصريين، ولكن ما الذى قدمه المصريون لفلسطين، فلماذا نفاخر إذن؟ وأخذت قرارى وغير نادم عليه".

ومن يعرف "العم تاج" يتأكد له أن هذا الموقف ليس بغريب عليه فأثناء عمله رساما بجريدة الجمهورية، كانت لريشته مواقف لا ينساها التاريخ، فقد هاجم "بيجين" رئيس وزراء إسرائيل الأسبق هجوما شرسا على صفحات جريدة الجمهورية، ومنع من الرسم بسببها، وخاضت ريشته معارك ضارية ضد النفاق والبلطجة والابتزاز والإرهاب، وكل القضايا الاجتماعية والسياسية التى تهم الإنسان المصرى البسيط، كما جاءت رسوماته الكاريكاتورية فى جريدة "أخبار النجوم" لاذعة وساخرة أحيانا وموجعة أحيانا أخرى ناقدا كل ما يراه سلبا فى الوسط الفنى دون خوف ولا وجل من سلطة ولا جاه غير ضميره الفنى والإنسانى هو الذى يحركه، وقد واجه الكثير من التهديدات ممن تناولهم فى رسومه

بشكل مهين نتيجة لسلوكهم المشين دون أن يعبأ بكل هذه التهديدات، وما زالت ريشة "تاج" أو "العم تاج" تعطى بلا توقف فلم ينس أن يسعد أطفال مصر برسومه الظريفة المرحة كل أسبوع فى الصيف، وكل خمسة عشر يوما بقية العام على صفحات مجلته المحبوبة "قطر الندي" فى بابه المميز "تفانين" الذى يحرره ويرسمه منذ أكثر من أثنى عشر عاما، أطال الله فى عمرك، وأبقى لنا ريشتك الرقيقة تقطر فنا وإبداعا وحبا للجميع.

★ نشر فى جريدة أخبار الأدب فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٨

obeikandl.com